

التفسير المحرر 13-10113-1.0

ولسْتُ أَبْرِيْ نَفْسِيْ مِنَ الْخَطِيْءِ وَالْهَمِّ بِذَلِكَ الْإِثْمِ، وَالْقِيَامُ
بِالْمَكَايِدِ وَالْحِيلِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ نَفُوسَ الْعِبَادِ كَثِيرًا مَا تَأْمُرُهُمْ
بِمَا تَهْوَاهُ مِنَ الْمَعَاصِي، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ فَعَصَمَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ كَثِيرُ
الصَّفَحِ عَنْ ذُنُوبِ عِبَادِهِ النَّائِبِينَ، فَيَسْتُرُهَا عَلَيْهِمْ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ
مُؤَاخَذَتِهِمْ بِهَا، رَحِيمٌ بِهِمْ فَلَا يَعَذِّبُهُمْ، وَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ، وَيُوقِّفُهُمْ
لِلْخَيْرِ.

وَقَالَ مَلِكٌ مِّصْرَ لَمَّا عَلِمَ بَرَاءَةَ يُوْسُفَ، وَعَرَفَ فَضْلَهُ
وَعِلْمَهُ، وَحِكْمَتَهُ وَحُسْنَ خُلُقِهِ، وَصَبْرَهُ وَعِفَّتَهُ: ائْتُونِي بِيُوْسُفَ
مِنَ السِّجْنِ أَجْعَلْهُ مِنْ خَاصَّتِي وَأَهْلِ مَشُورَتِي، خَالِصًا لِنَفْسِي
لَا يُشَارِكُنِي فِيهِ أَحَدٌ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ الْمَلِكُ زَادَتْ مَكَانَتُهُ لَدَيْهِ، فَقَالَ
لَهُ: إِنَّكَ قَدْ صِرْتَ عِنْدَنَا ذَا مَكَانَةٍ وَأَمَانَةٍ، مُتَمَكِّنًا مِمَّا أَرَدْتَ،
أُمِيًّا عَلَى مَا نَأْتِمُنْكَ عَلَيْهِ.

قَالَ لَهُ يُوْسُفُ طَلِبًا لِلْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ: وَكِلَانِي عَلَى خَزَائِنِ
الْأَمْوَالِ وَالطَّعَامِ فِي أَرْضِ مِصْرَ؛ لِحِفْظِهَا وَتَدْبِيرِهَا، إِنِّي حَافِظٌ
وَخَازِنٌ، أُمِيٌّ لِّلْخَزَائِنِ الَّتِي اسْتَوْدَعْتَنِي، ذُو عِلْمٍ وَبَصَرٍ بِمَا
أَتَوَلَّاهُ مِنْهَا، فَأَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ تَدْبِيرِهَا وَالتَّصَرُّفِ فِيهَا، دُونَ أَنْ يَضِيعَ
شَيْءٌ مِنْهَا فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ.

وَمِثْلُ مَا أَنْعَمْنَا عَلَى يُوْسُفَ بِإِنْجَائِهِ مِنَ السِّجْنِ، وَتَقْرِيْبِهِ إِلَى
قَلْبِ الْمَلِكِ، أَفْضَرْنَاهُ فِي أَرْضِ مِصْرَ، يَنْزِلُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ،
نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، كَمَا
رَحِمْنَا يُوْسُفَ، وَلَا يُبْطَلُ جَزَاءُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا أَعْمَالَهُمْ بِالطَّاعَةِ،
وَتَرْكِ الْمَعْصِيَةِ، فَتُنْشِئُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا أَتَيْنَا يُوْسُفَ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَأَثَابُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا، لِلْمُؤْمِنِينَ
الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَيَمْتَثِلُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَيَجْتَنِبُونَ مَا نَهَى عَنْهُ.
وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ لَمَّا أَصَابَهُمُ الْقَحْطُ؛ لِيَأْتُوا
بِالطَّعَامِ لِأَهْلِيهِمْ، فَدَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ، فَعَرَفَهُمْ حِينَ رَأَوْهُمْ، وَهُمْ
لَا يَعْرِفُونَهُ.

وَلَمَّا أَوْفَى يُوسُفُ إِخْوَتَهُ الطَّعَامَ، وَحَمَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
بَعِيرَهُ، قَالَ لَهُمْ: أَتُنُونِي بِأَخِيكُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمُوهُ لِي مِنْ أَبِيكُمْ؟
لِتُرَدِّدُوا حِمْلَ بَعِيرٍ آخَرَ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ عَادَتِي هِيَ إِيْتَامُ الْكَئِيلِ
دَائِمًا، وَأَتِي لَا أَبْخَسُ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَنَا خَيْرُ الْمُضْطَفِينَ فِي مِصْرَ
لِمَنْ نَزَلَ بِهِ، وَسَاحِسُنُ إِلَيْكُمْ، وَأَكْرَمُكُمْ إِذَا أَتَيْتُمْ بِأَخِيكُمْ.
فَإِنْ لَمْ تُحْضِرُوا إِلَيَّ أَخَاكُمْ حِينَ تَأْتُونَ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِيَةِ،
فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي طَعَامٌ أَكِيلُهُ لَكُمْ، وَلَا تَقْرُبُوا أَرْضَ مِصْرَ.
قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِيُوسُفَ حِينَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا إِلَيْهِ بِأَخِيهِمْ:
سَنَسْأَلُ أَبَاهُ يَعْقُوبَ أَنْ يَبْرُكَهُ يَسَافِرُ مَعَنَا، وَنَسْجَتُهُ فِي إِقْنَاعِهِ
حَتَّى نَأْتِيَ بِهِ مَعَنَا، وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ.

وَقَالَ يُوسُفُ لِعُلَمَائِهِ: اجْعَلُوا أَثْمَانًا مَا اشْتَرَوْهُ مِنَ الطَّعَامِ فِي
أَمْتِعَتِهِمْ، مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، لِكِي يَعْرِفُوهَا إِذَا انْصَرَفُوا إِلَى
أَهْلِهِمْ وَفَتَحُوا أَمْتِعَتَهُمْ فَوَجَدُوهَا؛ لِكِي يَرْجِعُوا إِلَيْنَا مَرَّةً أُخْرَى.
فَلَمَّا رَجَعَ إِخْوَةُ يُوسُفَ إِلَى أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ قَالُوا لَهُ: يَا أَبَانَا مَنَعَ
مَنَا الْكَئِيلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِنْ لَمْ تُرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا إِلَى مِصْرَ، فَارْسِلْهُ
مَعَنَا؛ حَتَّى يُمَكِّنَنَا الْعُودَةَ إِلَى مِصْرَ وَأَخْذَ الطَّعَامِ، وَإِنَّا لِأَخِينَا
لِحَافِظُونَ مَنْ أَنْ يَبَالَهُ فِي سَفَرِهِ سَوْءٌ، فَلَا تَخَفْ عَلَيْهِ.

قال يعقوبُ لأبنائه: ماذا أفادَ اتِّمَانُكُمْ على أخيه يوسفَ من قبلَ، حتَّى آمَنَكم على أخيكُم هذا الَّذي تسألُونَنِي أنْ أُرْسِلَهُ معكم؟! لقد فرطَتمُ في يوسفَ وحُلُتُم بيني وبينه، فكيف آمَنَكم على أخيه؟! فلا أثقُ بالتزامكم وحفظكم، فاللهُ خيرُ حافظاً لأخيكُم منكم ومن كلِّ أحدٍ، واللهُ أرحمُ الرَّاحمينَ بخَلْقِهِ، وسيرحمُ ضعفي وكبري، ووَجَدِي بفقدِ وَلَدِي، وأرجو منه أنْ يحفظَه ويرُدَّه عليَّ.

ولمَّا فَتَحَ إِخْوَةُ يوسُفَ مَتَاعَهُم الَّذي حَمَلُوهُ مِنْ مِصرَ، وَجَدُوا ثَمَنَ الطَّعَامِ الَّذي دَفَعُوهُ إِلَى يوسُفَ قد رَجَعَ إِلَيْهِمْ فِي رِحَالِهِمْ، قالوا لأبيهم تَرجِيئاً في إرسَالِ أخِيهِم معَهُمْ، وتطييناً لِنَفْسِهِ: يَا أَبَانَا مَاذَا نُرِيدُ بَعْدَ هَذَا الْإِكْرَامِ؟! هَذَا ثَمَنُ الطَّعَامِ رُدَّ إِلَيْنَا بَعْدَ أَنْ أُوفِيَ لَنَا كَيْلُنَا! وَنَسْتَتَرِي لِأَهْلِنَا طَعَاماً مِنْ مِصرَ إِذَا أُرْسِلَتْ مَعَنَا أَخَانَا، وَنَحْفَظُهُ مِمَّا تَخَافُ عَلَيْهِ، وَنَزِدَادُ جِملَ بَعِيرٍ لِأَخِينَا، ذَلِكَ جِملُ يَسِيرٍ.

قال يعقوبُ: لَنْ أُرْسِلَ معكم أَخَاكم إِلَى مِصرَ حتَّى تُعْطُونِي يَمِيناً وَعَهْداً مُؤَكِّداً أَنْ تَرُدُّوهُ إِلَيَّ، إِلَّا أَنْ تُغْلِبُوا جَمِيعُكُمْ بِأَمْرِ لَا قَبْلَ لَكُمْ بِهِ، فَلَا تَقْدِرُوا عَلَى تَخْلِيصِ أَخِيكُمْ وَرَدِّهِ مَعَكُمْ، فَلَمَّا أُعْطِيَ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ أَبَاهُمْ عُهْدَهُمْ عَلَى أَنْ يَرُدُّوا إِلَيْهِ أَخَاهُمْ، قال يعقوبُ: اللهُ شَهِيدٌ عَلَيْنَا بِالْوَفَاءِ بِمَا نَقُولُ جَمِيعاً، أَنَا وَأَنْتُمْ تَكْفِينَا شَهَادَتَهُ وَحَفَظَهُ.

وقال يعقوبُ لأبنائه لَمَّا أَرَادُوا الْخُرُوجَ إِلَى مِصرَ: يَا بَنَيَّ لَا تَدْخُلُوا مِصرَ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ، هَذَا الْإِحْتِرَازُ سَبَبٌ لَا يَرُدُّ قَدَرَ اللهِ، فَمَا أَقْدِرُ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمْ بِوَصِيَّتِي هَذِهِ مِنْ قِضَاءِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ اللهَ إِذَا قَدَّرَ شَيْئاً فَلَا بُدَّ مِنْ

وُقُوْعِهِ، مَا الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ يَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ، وَيَقْضِي فِيهِمْ بِمَا يَشَاءُ، عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ اعْتَمَدْتُ وَوَقَّعْتُ، وَعَلَيْهِ فَلْيُقَوِّضْ الْمُفَوَّضُونَ أُمُورَهُمْ.

وَلَمَّا دَخَلَ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ مِصْرَ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، كَمَا أَمَرَ هُمْ أَبُوهُمْ، مَا كَانَ يَنْفَعُهُمْ دُخُولُهُمْ بِتِلْكَ الصِّفَةِ شَيْئًا مِمَّا قَضَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لَكِنْ لِحَاجَةٍ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ أَنْفَذَهَا حِينَ أَمَرَ هُمْ بِذَلِكَ، فَلَمْ يَدْخُرْ تِلْكَ النَّصِيحَةَ عَنْهُمْ؛ لِيُطْمَنَّنَ قَلْبُهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا يَظُنُّهُ نَافِعًا لَهُمْ إِلَّا أَبْلَغَهُ إِلَيْهِمْ؛ وَلِيُعْلِمَهُمُ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّ يَعْقُوبَ لَصَاحِبُ عِلْمٍ عَظِيمٍ؛ لَتُعْلِمُنَا إِيَّاهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مَا يَعْلَمُهُ نَبِيُّنَا يَعْقُوبُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، وَعَوَاقِبِ الْأُمُورِ.

وَلَمَّا دَخَلَ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ عَلَى يَوْسُفَ، ضَمَّ يَوْسُفُ إِلَيْهِ أَخَاهُ الشَّقِيقَ، وَقَالَ لَهُ مُخْبِرًا بِحَقِيقَتِهِ: إِنِّي أَنَا أَخُوكَ، فَلَا تَحْزَنْ بِمَا كَانَ إِخْوَتُكَ يَفْعَلُونَ بِي وَبِكَ مِنْ قَبْلُ.

فَلَمَّا أَوْفَى يَوْسُفُ إِخْوَتَهُ الطَّعَامَ، وَحَمَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بَعِيرَهُ؛ جَعَلَ الْإِنَاءَ -الَّذِي يَشْرَبُ فِيهِ الْمَلِكُ وَيُكَالُ بِهِ الطَّعَامُ- فِي مَتَاعِ أَخِيهِ الشَّقِيقَ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَصْحَابَ الْقَافِلَةِ الْمُحْمَلَةِ بِالطَّعَامِ، إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ.

قَالَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ وَقَدْ أَقْبَلُوا عَلَى الْمُنَادِي وَمَنْ مَعَهُ: مَا الَّذِي ضَاعَ مِنْكُمْ؟

قَالَ الْمُنَادِي وَمَنْ مَعَهُ: نَفَقِدُ الْإِنَاءَ الَّذِي يَشْرَبُ فِيهِ الْمَلِكُ، وَيَكِيلُ بِهِ الطَّعَامَ، وَلَمَنْ جَاءَ بِصُوعِ الْمَلِكِ حِمْلٌ بَعِيرٍ مِنَ الطَّعَامِ، قَالَ الْمُنَادِي: وَأَنَا بَأْنُ أَوْفَى مَنْ قَامَ بِذَلِكَ حِمْلٌ بَعِيرٍ مِنَ الطَّعَامِ، ضَامِنٌ وَكَفِيلٌ.

قال إخوة يوسف: والله لقد علمتم أننا ما جئنا لنعصي الله في أرضكم، ولم نكن سارقين من قبل قط، فليست السرقة من خصالنا.

قال المُنَادِي وَمَنْ مَعَهُ: فما عُقُوبَةُ سَارِقِ الصُّوَاعِ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ فِي تَبْرِئَةِ أَنْفُسِكُمْ، وَوَجَدْنَا الصُّوَاعَ فِي رِحَالِكُمْ؟
قال إخوة يوسف: عُقُوبَةُ مَنْ وُجِدَ الصُّوَاعُ فِي مَتَاعِهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ رَقِيقًا لِصَاحِبِ الصُّوَاعِ، كَذَلِكَ نُعَاقِبُ الظَّالِمِينَ لِلنَّاسِ بِسَرِقَةِ أَمْتَعَتِهِمْ؛ أَنْ يَكُونَ السَّارِقُ مِلْكًا لِصَاحِبِ الْمَالِ الْمَسْرُوقِ.

فبدأ يوسف بتفتيش أمتعة إخوته قبل تفتيش متاع أخيه الشقيق، ثم استخرج الصُّوَاعَ مِنْ مَتَاعِ شَقِيقِهِ؛ لِيَصِحَّ لَهُ بِذَلِكَ إِمْسَاكُهُ عِنْدَهُ. مِثْلُ ذَلِكَ الْكِيدِ الْعَجِيبِ دَبَّرْنَا لِيُوسُفَ؛ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى مَقْصُودِهِ بِالطَّيْفِ حِيلَةٍ، مَا كَانَ يُوسُفُ لِيُفَدِّرَ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ أَخَاهُ وَفَقًا لَشَرِيعَةِ مَلِكِ مِصْرَ -فَلَيْسَ فِي حُكْمِهِ أَنْ مَنْ سَرَقَ يُسْتَرْقَ- إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؛ فَقَدْ كَادَ لِيُوسُفَ حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ أَخْذِ شَقِيقِهِ مِنْ إِخْوَتِهِ، بِنَاءً عَلَى شَرِيعَتِهِمْ، وَإِقْرَارِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، فَجَعَلَ الْحُكْمَ مِنْهُمْ؛ لِيَتِمَّ لَهُ مَا أَرَادَ، نَرَفَعُ مَنْ نَشَاءُ دَرَجَاتٍ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَمَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ، كَمَا رَفَعْنَا يُوسُفَ، وَفَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْعِلْمُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

قال إخوة يوسف تبرئة لأنفسهم من هذه التهمة التي تُحَرِّجُهُمْ: إِنْ يَسْرِقُ هَذَا فَلَيْسَ بِغَرِيبٍ مِنْهُ؛ فَقَدْ سَرَقَ شَقِيقُهُ يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ، فَاضْمَرَ يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ كَلِمَةً، وَلَمْ يُظْهِرْهَا لَهُمْ، وَهِيَ قَوْلُهُ: أَنْتُمْ شَرُّ مَنْزِلَةٍ عِنْدَ اللَّهِ مِمَّنْ نَسِبْتُمُوهُ إِلَى

السَّرْقَةِ؛ لِصَنِيعِكُمُ الظَّالِمِ بِي، وَعُقُوقِ أَبِيكُم، ثُمَّ بَعْدَ تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ لَمْ يَزَلِ الْحِفْدُ عَنْ قُلُوبِكُم، فَرَمَيْتُمُونِي بِالسَّرْقَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَذْكُرُونَ مِنَ الْكَذِبِ.

قال إخوة يوسف ليوسف: يا أيُّها العزيزُ إنَّ لأخيـنا الَّذي تُريدُ أخـذه أباً شَيْخاً كَبِيراً، يَحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِهِ، فَخُذْ واحِداً مَنَّا بَدَلاً مِنْ أَخِيـنا الَّذي تُريدُ أخـذه؛ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ فِي أَفْعَالِكَ، فَأَحْسِنْ إِلَيْنَا وَإِلَى أَبِيـنا بِأَخْذِ أَحَدِنَا، وَتَرَكْ أَخِيـنا يَرْجِعْ إِلَى أَبِيهِ.

قال يوسف لإخوته: نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ بَرِيئاً بَدَلاً مِمَّنْ وَجَدْنَا الصُّوَاعَ لَدَيْهِ؛ إِنَّا إِذَا أَخَذْنَا غَيْرَهُ لظَالِمُونَ بَوْضُعِنَا الْعُقُوبَةَ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا.

فَلَمَّا بَيَّسَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ مِنْ أَنْ يُخْلِيَ يَوْسُفَ سَرَاحَ أَخِيهِمْ، وَيَأْخُذَ واحِداً مِنْهُمْ مَكَانَهُ، انْفَرَدُوا عَنِ النَّاسِ، وَاجْتَمَعُوا يَتَسَارَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَتَشَاوِرُونَ فِي شَأْنِ مَا وَقَعُوا فِيهِ، قَالَ أَكْبَرُ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ سَبًّا لِإِخْوَتِهِ: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُم يَعْقُوبَ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ عَهْودَ اللَّهِ الْمُؤَكَّدَةَ بِأَنْ تَرُدُّوْا إِلَيْهِ وَلَدَهُ؟! أَلَمْ تَعْلَمُوا أَيْضًا تَفْرِيطُكُمْ فِي يَوْسُفَ وَإِضَاعَتِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا؟! فَاجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ الْأَمْرَانِ؛ تَفْرِيطُكُمْ فِي يَوْسُفَ، وَعَدَمُ إِيْتَانِكُمْ بِأَخِيهِ، فَلَنْ أَفَارِقَ أَرْضَ مِصْرَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي بِالْخُرُوجِ مِنْهَا؛ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي مِنْهُ، أَوْ يَقْضِي اللَّهُ لِي بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ أَفْضَلُ وَأَعْدَلُ مَنْ حَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ.

قال أَكْبَرُ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ لِإِخْوَتِهِ: ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ يَعْقُوبَ، فَقُولُوا لَهُ: يَا أَبَانَا، إِنَّ ابْنَكَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ مَعَنَا سَرَقَ صُّوَاعَ الْمَلِكِ، وَأَخَذَ بَجِنَايَتِهِ، وَمَا شَهِدْنَا عِنْدَكَ -يَا أَبَانَا- بِأَنْ ابْنَكَ سَرَقَ

إِلَّا بِمَا رَأَيْنَا؛ مِنْ اسْتِخْرَاجِ الصُّوَاعِ مِنْ رَحْلِهِ، وَمَا كُنَّا لِمَا غَابَ عَنَّا عَالَمِينَ؛ فَلَمْ نَدْرِ أَنَّ ابْنَكَ سَيَسْرِقُ الصُّوَاعَ، وَيُسْتَرَقُّ عِنْدَ الْمَلِكِ.

وقولوا لأبيكم: وَإِنْ كُنْتَ لَا تُصَدِّقُنَا فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ سَرَقَةِ ابْنِكَ لِلصُّوَاعِ، فَاسْأَلْ أَهْلَ مِصْرَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا؛ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ صِدْقُنَا، وَاسْأَلْ أَصْحَابَ الْقَافِلَةِ الَّتِي جِئْنَا مَعَهَا وَرَافَقْنَاها؛ فَسَيُصَدِّقُونَنَا فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ سَرَقَةِ ابْنِكَ صُّوَاعِ الْمَلِكِ، وَاسْتِرْقَاقِهِ بِسَبَبِ سَرِقَتِهِ، وَلَمْ نَكْذِبْ عَلَيْكَ.

قال يَعْقُوبُ لأبنائه: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ادَّعَيْتُمْ، بَلْ زَيَّنْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا أَرَدْتُمُوهُ بِأَخِيكُمْ غَيْرَ مَا تَقُولُونَ! فَصَبِّرْ عَلَى فَقْدِ أَبْنَائِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، لَا جَزَعٌ فِيهِ، وَلَا شَكْوَى إِلَى الْخَلْقِ؛ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ أَبْنَائِي الْغَائِبِينَ جَمِيعًا: يَوْسُفَ وَأَخُوهُ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ بِحَالِي، الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ وَقَضَائِهِ وَتَدْبِيرِ خَلْقِهِ. وَأَعْرَضَ يَعْقُوبُ عَنْ أَبْنَائِهِ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرُوهُ بِمَا جَدَّ حُزْنُهُ الْقَدِيمَ، وَقَالَ: يَا شِدَّةَ حُزْنِي عَلَى وَلَدِي يَوْسُفَ! وَابْيَضَّتْ عَيْنَا يَعْقُوبَ مِنْ شِدَّةِ الْحُزَنِ الَّذِي أُوجِبَ لَهُ كَثْرَةُ الْبُكَاءِ؛ فَقَلْبُهُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْحُزَنِ، وَهُوَ كَانَتْ لَهُ لَا يُظْهَرُهُ.

قال أبناءُ يَعْقُوبَ لأبيهم مُتَعَجِّبِينَ مِنْ حَالِهِ: وَاللَّهِ، لَا تَزَالُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ وَلَا تَنْسَاهُ حَتَّى يَضْعُفَ جِسْمُكَ وَعَقْلُكَ، وَتَقَارِبَ الْهَلَاكَ مِنْ شِدَّةِ الْحُزَنِ عَلَيْهِ! أَوْ تَكُونَ مَمَّنْ هَلَكَ بِالْمَوْتِ! قال يَعْقُوبُ رَادًّا عَلَى أَبْنَائِهِ: إِنَّمَا أَشْكُو هَمِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَخُدَّه، لَا إِلَى خَلْقِهِ، وَأَعْلَمُ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ عِلْمًا عَظِيمًا لَا تَعْلَمُونَهُ أَنْتُمْ.

يا أبنائي، اذهبوا إلى مصر، فاجتهدوا في التماس يوسف وأخيه، وتعرفوا خبرهما، ولا تقنطوا من فرج الله ورحمته؛ وأنه سيروح عنا ما نحن فيه من الكرب والشدة، إنه لا يقنط من فرج الله، ويقطع رجاءه من رحمته إلا القوم الذين يجحدون قدرته، ويستبعدون رحمته.

فرجع إخوة يوسف إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف قالوا له: يا أيها العزيز، أصابنا وأهلنا الجوع والحاجة والشدة؛ بسبب القحط، وقلة الطعام، وأتينا بئس رديء قليل لشراء الطعام، فأوفنا كيل الطعام ولا ننقصه، ونفضل علينا، وتسامح بما بين الثمن الجيد للطعام والتمن الرديء الذي قدّمناه لشرائه، ولا ننقصنا من الطعام بسبب ذلك، إن الله يثيب في الدنيا والآخرة المتفضلين بأموالهم على المحتاجين.

قال يوسف لإخوته: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه من الأذى، حال جهلكم بمقدار ما ارتكبتموه، وعاقبة ما فعلتموه؟ قال إخوة يوسف له: أإنك لأنت أخونا يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف، وهذا أخي الشقيق، قد من الله علينا بالاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والتمكين في الدنيا، إنه من يتق الله، فيمتثل ما أمر به، ويجتنب ما نهى عنه، ويصبر على الطاعات وعن المعاصي وعلى المصائب؛ فإن الله لا يبطل ثواب إحسانه، ولا ثواب كل من أحسن بذلك.

قال إخوة يوسف مفسمين له: تالله، لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم، وحسن الخلقة والخلق، والملك، وما كنا فيما فعلنا بك إلا مذنبين مخطئين في حقك.

قال يوسف لإخوته: لَا تَغْيِيرَ عَلَيْكُمْ، وَلَا تَوْبِيخَ بِمَا صَنَعْتُمْ، وَلَا إِفْسَادَ لِمَا بَيْنَنَا مِنَ الْأُخُوَّةِ بَعْدَ الْيَوْمِ، يَسْتُرُ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَيتجاوزُ عن مُؤَاخَذَتِكُمْ بها، وهو أرحمُ الرَّاحِمِينَ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ، وَأَنَابَ إِلَى طَاعَتِهِ.

قال يوسف لإخوته: اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَعْقُوبَ، يَصِرَ مُبْصِرًا بَعْدَ الْعَمَى، وَجِيئُونِي بِجَمِيعِ أَهْلِكُمْ بَنِي يَعْقُوبَ.

وَلَمَّا خَرَجَتْ قَافِلَةُ بَنِي يَعْقُوبَ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ، قَالَ يَعْقُوبُ لِمَنْ حَضَرَ عِنْدَهُ: إِنِّي لِأَشْمُ رَائِحَةَ ابْنِي يُوسُفَ! لَوْلَا أَنْ تُنْسِبُونِي إِلَى الْهَرَمِ وَضَعْفِ الْعَقْلِ وَالْخَرَفِ، لَتَحَقَّقْتُ ذَلِكَ وَصَدَّقْتُمُونِي.

قال الحاضرون ليعقوب: وَاللَّهِ، إِنَّكَ لَفِي خَطِيئِكَ الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ قَدِيمًا، قَدْ ذَهَبَتْ عَنِ الْعِلْمِ بِحَقِيقَةِ أَمْرِ يُوسُفَ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَطْمَعُ فِي رَجُوعِهِ إِلَيْكَ!

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ يَعْقُوبَ وَلَدُهُ الْمُبَشِّرُ بِرِسَالَةِ يُوسُفَ، أَلْقَى قَمِيصَ يُوسُفَ عَلَى وَجْهِ يَعْقُوبَ، فَعَادَ مُبْصِرًا بِعَيْنَيْهِ كَمَا كَانَ! قَالَ يَعْقُوبُ لِأَوْلَادِهِ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ أَنَّهُ سِيرُدُّ عَلَيَّ يُوسُفَ، وَيجْمَعُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؟!

قال إخوة يوسف لأبيهم: يَا أَبَانَا، اسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَلَيْنَا ذُنُوبَنَا الَّتِي أَذْنَبْنَاهَا فِي حَقِّكَ وَحَقِّ يُوسُفَ، وَيتجاوزَ عن مُؤَاخَذَتِنَا بها؛ إِنَّا كُنَّا مُذْنِبِينَ مُنْعَمِدِينَ لِلْإِثْمِ بِمَا فَعَلْنَا.

قال يعقوب لهم: سَوْفَ أَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَغْفِرَ ذُنُوبَكُمْ؛ إِنَّ رَبِّي هُوَ السَّاتِرُ لِذُنُوبِ التَّائِبِينَ، الْمُتَجَاوِزُ عَنِ الْمُؤَاخَذَةِ بِهَا، الرَّحِيمُ بِهِمْ؛ فَلَا يُعَذِّبُهُمْ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ.

فرَحَلَ يَعْقُوبُ بِأَهْلِهِ جَمِيعًا إِلَى مِصْرَ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يَوْسُفَ ضَمَّ يَوْسُفُ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ، وَاخْتَصَمَهُمَا بِقُرْبِهِ، وَقَالَ لَجَمِيعِ أَهْلِهِ: ادْخُلُوا مِصْرَ آمَنِينَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمَخَافِ. وَأَجْلَسَ يَوْسُفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ عَلَى السَّرِيرِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَخَرَّ أَبُو يَوْسُفَ وَأُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ الْأَحَدَ عَشَرَ سَاجِدِينَ لِيَوْسُفَ؛ تَحِيَّةً لَهُ وَتَعْظِيمًا، وَقَالَ يَوْسُفُ لِأَبِيهِ يَعْقُوبَ: يَا أَبَتِ هَذَا السُّجُودُ مِنْكُمْ هُوَ مَا أَلْتُ إِلَيْهِ رُؤْيَايَ الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي مَنَامِي مِنْ قَبْلُ - وَذَلِكَ حِينَ رَأَى أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا لَهُ سَاجِدِينَ - قَدْ حَقَّقَ رَبِّي وَقُوعَهَا، وَجَعَلَهَا صَادِقَةً، وَقَدْ أَحْسَنَ رَبِّي إِلَيَّ حِينَ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ، وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ بَادِيَةِ الشَّامِ إِلَى حَاضِرَةِ مِصْرَ، مِنْ بَعْدِ أَنْ دَخَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، فَأَفْسَدَ مَا بَيْنَنَا بِالْحَسَدِ، وَأَغْرَى بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يُرِيدُهُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْبِرِّ وَالرَّحْمَةِ؛ فَيُبَيِّرُ لَهُمُ الْخَيْرَ بِطَرُقٍ خَفِيَّةٍ دَقِيقَةٍ، مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا يَحْتَسِبُونَ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ ظَوَاهِرُ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنُهَا، وَلَا مَبَادِئُهَا وَعَوَاقِبُهَا، الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَتَدْبِيرِهِ؛ فَيَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ، وَيَسُوقُ الْأُمُورَ إِلَى أَوْقَاتِهَا الْمُقَدَّرَةِ لَهَا.

قَالَ يَوْسُفُ: يَا رَبِّ، قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ مُلْكِ مِصْرَ بِالتَّصَرُّفِ فِي شُؤُنِ خَزَائِنِهَا، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَى، وَمِنْ عُلُومِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ، وَسُئِنَ الْأَنْبِيَاءِ، يَا خَالِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ نَاصِرِي وَمُتَوَلِّي أُمُورِي فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، اقْبِضْنِي إِلَيْكَ إِذَا جَاءَ أَجَلِي وَأَنَا ثَابِتٌ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالْحَقْنِي فِي الثَّوَابِ

والدَّرَجَاتِ بِالصَّالِحِينَ مِنْ آبَائِي؛ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَغَيْرَهُمَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ -مِنْ خَبَرِ يَوْسُفَ وَغَيْرِهِ مِمَّا غَاب عَنْكَ عِلْمُهُ- نُوحِيهِ إِلَيْكَ -يَا مُحَمَّدٌ- وَنُعَلِّمُكَ بِهِ؛ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَلِنُصَبِّرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ، وَمَا كُنْتَ حَاضِرًا -يَا مُحَمَّدٌ- عِنْدَ إِخْوَةِ يَوْسُفَ حِينَ اتَّفَقَتْ أَرَاؤُهُمْ، وَصَحَّتْ عَزَائِمُهُمْ عَلَى إِلْقَاءِ يَوْسُفَ فِي الْجُبِّ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَمْكُرُونَ بِهِ فِي هَذَا الْفَعْلِ، وَيَبْتَغُونَ لَهُ الْعَوَائِلَ.

وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ -يَا مُحَمَّدٌ- وَلَوْ حَرَصْتَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ بِمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، وَبِمَا جَنَّبْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ سُبْحَانَهُ.

وَمَا تَطَلَّبُ مِنْهُمْ -يَا مُحَمَّدٌ- عَلَى تَذْكِيرِهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَنُصْحِهِمْ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ أُجْرَةً، مَا الْقُرْآنُ إِلَّا عِظَةٌ وَتَذْكِرَةٌ لِلْعَالَمِينَ، يَتَذَكَّرُونَ بِهِ، وَيَهْتَدُونَ.

وَكَمْ مِنْ عِلَامَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، يَمُرُّ عَلَيْهَا النَّاسُ وَيَرَوْنَهَا، وَهُمْ عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهَا وَالْإِعْتِبَارِ بِهَا مُعْرِضُونَ.

وَمَا يَقْرَأُ أَكْثَرَ النَّاسِ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ فِي عِبَادَتِهِ!

أَفَأَمِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ تَغْشَاهُمْ وَتُحِيطُ بِهِمْ؛ بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ؟! أَوْ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْقِيَامَةُ فَجَاءَةً وَهُمْ لَا يَذَرُونَ بِمَجِيئِهَا؟! فَلْيَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ إِذَا. قُلْ -يَا مُحَمَّدٌ- لِلنَّاسِ: هَذِهِ طَرِيقَتِي؛ أَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عَلَى بَيِّنَةٍ وَعِلْمٍ، وَيَقِينٍ مَنِّي بِصَحَّةِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، أَنَا وَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَنِي كَذَلِكَ نَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ عَلَى بَيِّنَةٍ وَعِلْمٍ، وَأُنْزِرْهُ

الله عن جميع النِّقائص؛ كأن يكون له شريك في المُلْك أو العِبادة، أو يكون له مثيل أو ولد أو صاحبة أو مُعين، وأتبرأ من الذين يَعْبُدون غيره، ولا أعبدُ إلا الله وحده.

وما أرسَلنا الأنبياءَ مِن قَبْلِكَ -يا مُحَمَّد- إلا رجالاً -لا مَلائكةَ ولا نساءَ- نُوحِي إليهم أنْ يأْمُرُوا النَّاسَ بِإِفْرَادِ العِبادةِ لي، وَيَدْعُوهم إلى طاعتي، وهم مِن أَهْلِ المَدْنِ لا مِن أَهْلِ البَوادي، أَفَلَمْ يَسِرْ هَؤُلاءِ المُشْرِكُونَ المُكذِّبُونَ لَكَ -يا مُحَمَّد- في الأرضِ، فيَنْظُرُوا كيفَ أَهْلَكَ اللهُ الأَمَمَ الَّذِينَ كَذَبُوا رُسُلَهُم مِن قَبْلِهِم، فيَعْتَبِرُوا؟! وكما أَنْجَيْنَا المُتَّقِينَ في الدُّنْيا عِنْدَ نَزولِ العُقوبةِ بالمُشْرِكِينَ والعُصاةِ، كذلك كَتَبْنَا لَهُم النِّجاةَ في الدَّارِ الآخِرَةِ أَيضاً، والجنَّةُ خَيْرٌ لَهُم مِنَ الدُّنْيا وأَحْسَنُ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ حَقِيقَةَ ما أَخْبَرْنَاكُمْ بِهِ في القرآنِ مِن سَوءِ عاقِبَةِ الكُفْرِ، وخيرِيَّةِ الدَّارِ الآخِرَةِ، فَتُؤْمِنُوا باللهِ، وَتَتَّقُوا الإِشْرَاقَ بِهِ؟!

حَتَّى إِذَا يَبْسُ رُسُلُ اللهِ، وَخَطَرَ بِقُلُوبِهِم، وَحَدَّثْتَهُمْ أَنْفُسُهُم أَنَّهُمْ قَدْ أَخْلَفُوا فِيمَا وَعَدَهُم اللهُ بِهِ مِنَ النِّصْرِ؛ لَطُولِ البَلَاءِ عَلَيْهِم، وإِبطاءِ النِّصْرِ -أَتَاهُمْ نَصْرُنَا فَجأةً، فَجَنَّبْنَاهُمْ وَأَتْبَاعَهُم الْمُؤْمِنِينَ، وَلا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّ عَذَابَنَا عَنِ الْقَوْمِ المُشْرِكِينَ المُكذِّبِينَ لِلرُّسُلِ.

لَقَدْ كانَ في قِصَصِ يوسُفَ وإِخْوَتِهِ وَقِصَصِ المُرسَلِينَ مع أُمَّهاتِهِمْ عِظَةً لأَهْلِ العُقُولِ السَّليمةِ يَعْتَبِرُونَ بِها، ما كانَ القرآنُ وما فيه مِنَ الأَخْبارِ والقِصَصِ حَدِيثاً يُكَذَّبُ وَيُخْتَلَقُ، وَلَكِنْ يُصَدِّقُ الكُتُبَ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ مِن قَبْلُ عَلى الأنبياءِ، وَيَشْهَدُ لِمَا فيها مِنَ الصَّحِيحِ الَّذِي لَمْ يُحَرِّفْ أَنَّهُ حَقٌّ عِنْدَ اللهِ، وَالقرآنُ يُبَيِّنُ كُلَّ ما يَحْتَاجُ العِبادَ إلى بَيانِهِ مِنَ العَقائِدِ، وَالشَّرائِعِ

والأحكام، والأخبار، وهو هُدًى مِنْ كُلِّ ضَلَالَةٍ لِمَنْ اتَّبَعَهُ،
ورحمةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِلْمُصَدِّقِينَ بِهِ، الْعَامِلِينَ بِمَا فِيهِ.
تُبَيِّنُ هَذِهِ الْحُرُوفُ الْمَقْطَعَةُ، إِعْجَازَ الْقُرْآنِ؛ حَيْثُ تُظْهَرُ
عَجْزُ الْخَلْقِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مَرْكَبٌ مِنْ هَذِهِ
الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا!

تلك آياتُ القرآن، الرَّفِيعَةُ الشَّانِ، وَهَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي أُنْزِلَ
إِلَيْكَ -يَا مُحَمَّدُ- مِنْ رَبِّكَ، هُوَ الْحَقُّ؛ فَاعْتَصِمْ بِهِ، وَوَجِبَ لثُبُوتِ
حَقِّقَتِهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، مَعَ
وُضُوحِ ذَلِكَ؛ جَهْلًا، أَوْ عِنَادًا مِنْهُمْ.

اللَّهُ هُوَ الَّذِي رَفَعَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ بِلا أَعْمَدَةٍ،
كَمَا تَرَوْنَهَا، ثُمَّ عَلَا اللَّهُ عَلَى عَرْشِهِ الْعَظِيمِ عَلَوًّا يَلِيقُ بِهِ، وَذَلِكَ
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لِمَصَالِحِ خَلْقِهِ، كُلُّ مِنْهُمَا يَجْرِي فِي السَّمَاءِ إِلَى
انْتِهَاءِ الدُّنْيَا، يُصِرُّ أُمُورَ مَخْلُوقَاتِهِ كَمَا يَرِيدُ، وَيُوضِّحُ آيَاتِهِ
الدَّالَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ؛ لِنُوقِفُوا بِالْبَعْثِ
وَالْجَزَاءِ.

وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي بَسَطَ الْأَرْضَ، فَجَعَلَهَا مَتَّسِعَةً الْأَرْجَاءِ، وَجَعَلَ
فِيهَا جِبَالًا ثَابِتَةً، وَأَنْهَارًا جَارِيَةً، وَجَعَلَ فِيهَا مِنْ جَمِيعِ الثَّمَرَاتِ
صَنَفَيْنِ اثْنَيْنِ، وَيَغْطِي اللَّهُ بِاللَّيْلِ النَّهَارَ، إِنَّ فِيمَا ذُكِرَ مِنْ عَجَائِبِ
الْمَخْلُوقَاتِ لَدَلَالَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا.

وَجَعَلَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بَقَاعًا مُخْتَلِفَةً فِي أَلْوَانِهَا وَأَحْجَامِهَا،
وغير ذلك، مَعَ كَوْنِهَا مُتَجَاوِرَةً! وَفِي الْأَرْضِ بَسَاتِينٌ مِنْ أَعْنَابٍ
مُتَنَوِّعَةٍ، وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَهَنَّاكَ نَخَلَاتٍ يَجْمَعُهُنَّ أَصْلٌ
وَاحِدٌ فِي مَنبَتٍ وَاحِدٍ، وَبَعْضُهَا مُتَفَرِّقَةٌ، كُلُّ نَخْلَةٍ مِنْهَا نَابِتَةٌ مِنْ
أَصْلٍ مُسْتَقِلٍّ، وَجَمِيعُ مَا ذُكِرَ فِي الْآيَةِ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ عَذْبٍ،

ومع ذلك فنمارُ بعضها أفضل من بعضٍ؛ طَعْمًا وشَكْلًا، ولونًا وغير ذلك، إِنَّ في اختلافِ قطع الأرضِ المتجاوراتِ، واختلافِ ثمارها لعلاماتٍ لمن كان له قلبٌ يعقلُ به عن الله ما أَخْبَرَ به.

وإِنْ تَعَجَّبَ -يا مُحَمَّدٌ- مِنْ عِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ إِلَهَةً لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، بعد رؤيتهم آثارَ قُدْرَةِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ؛ كَخَلْقِهِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ؛ فَالْعَجَبُ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَيْدَا صِرْنَا ثُرَابًا بَعْدَ مَوْتِنَا، أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا كَمَا كُنَّا فِي الدُّنْيَا؟! أَوْلَيْكَ وَقَعُوا فِي الْكُفْرِ بِرَبِّهِمْ، وَفِي أَعْنَاقِهِمْ أَطْوَاقٌ مِنْ حَدِيدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ مَلَاذِمُونَ لِلنَّارِ أَبَدًا

وَيَطْلُبُ كَفَّارُ قَوْمِكَ -يا مُحَمَّدٌ- اسْتِخْفَافًا وَاسْتِهْزَاءً؛ أَنْ تُعَجِّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُبُوا الْعَافِيَةَ وَالْإِمْهَالَ؛ لِشِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا حَلَّ بِالْكَفَّارِ قَبْلَهُمْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، فَلَمْ يَتَّعِظُوا! وَإِنَّ رَبَّكَ -يا مُحَمَّدٌ- لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ رَغْمَ ظُلْمِهِمْ، وَذَلِكَ إِذَا تَابُوا، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ أَصْرَرَ عَلَى ظُلْمِهِ.

وَيَقُولُ كَفَّارُ قَوْمِكَ -يا مُحَمَّدٌ- عِنَادًا: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مُعْجِزَةٌ مِنْ رَبِّهِ تَدُلُّ عَلَى نُبُوتِهِ؟ إِنَّمَا عَلَيْكَ -يا مُحَمَّدٌ- إِنْذَارٌ قَوْمِكَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ إِنْ أَصْرَرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ هُدَايُهُمْ، وَلَا إِنْزَالُ مَا يَقْتَرِحُونَهُ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَقِّ؛ لِيَهْتَدُوا

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُهُ كُلُّ أَنْثَى مِنْ بَنِي آدَمَ وَغَيْرِهِمْ، عَلَى أَيِّ حَالٍ هُوَ؛ مِنْ ذُكُورَةٍ وَأُنُوثَةٍ، وَحُسْنٍ وَقُبْحٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ تَعَالَى عَالِمٌ بِمَا تَتَّقُصُّهُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِيدُهُ؛ فِي بَدَنِ الْجَنِينِ، أَوْ

مدّة الحمل، أو غير ذلك، وكلُّ شيءٍ عند الله له حدٌّ، لا يتجاوزُه ولا يَقْصُرُ عنه.

الله عالمٌ بكلِّ ما غاب عنكم، وكلِّ ما تُشاهدونه، وهو الكبيرُ في ذاته وأسمائه وصفاته، وهو المُستعلي على جميع خلقه، بذاته وقدره وقهره.

يستوي في علم الله تعالى وسمعه مَنْ أَسْرَ مِنْكُمْ بقَوْلٍ، وَمَنْ جَهَرَ به، ويستوي في علم الله وبصره مَنْ هو مُخْتَفٍ في ظِلْمَةِ اللَّيْلِ، وَمَنْ هو ظاهرٌ يمشي في ضوءِ النَّهَارِ.

للعبد ملائكةٌ يتعاقبون عليه، فيأتيه بعضهم عَقَبَ بَعْضٍ، مِنْ أَمَامِهِ وخلفه فيحفظونه من أمر الله، إِنَّ الله لا يُغَيِّرُ ما بقَوْمٍ مِنْ نِعْمَةٍ فيزِيلُها عنهم، حتَّى يَغَيِّرُوا ما كانوا عليه مِنْ طاعةِ الله بِمَعْصِيَتِهِ، وشكره بكفره، وإذا شاء الله أَنْ يُصِيبَ قَوْمًا بسوءٍ، فأرادته لا بُدَّ أَنْ تنفَّذَ فيهم؛ وليس لهم أحدٌ سِوَاهُ يتولَّى أمرَهم، وينصُرُهم.

الله هو الَّذي يُريكم البرقَ خوفًا مِنَ الصَّوَاعِقِ، وطمعًا في الانتفاعِ بالمطرِ، ويخلقُ الله السَّحَابَ الثِّقَالَ بما يَحْمِلُهُ مِنْ مِياهٍ كثيرةٍ.

وَيُنَزِّلُهُ الرِّعْدُ اللهُ عَنِ النَّقَائِصِ تنزيهاً مُتَلَبِّسًا بِحَمْدِهِ تعالى، وتنزُّرُهُ الملائكةُ اللهُ؛ خوفًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَيُرْسِلُ اللهُ الصَّوَاعِقَ مِنَ السَّمَاءِ، فيَهْلِكُ بها مَنْ يشاءُ، وهؤلاءِ الكَفَّارُ -رغم تلكِ الآياتِ- يجادلونَ في قدرةِ الله على البعثِ، وفي وحدانيَّتِهِ! والله قويٌّ، شديدُ الأخذِ، عظيمُ الكَيْدِ بمن تَمَادَى في الكُفْرِ به.

لِلَّهِ وَحْدَهُ الدَّعْوَةُ الْحَقُّ -وهي كلمةُ التَّوْحِيدِ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ- فهو المُسْتَحِقُّ وَحْدَهُ للعبادةِ والدُّعاءِ، وَالَّذِينَ يدعُوهم المُشْرِكُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يُجِيبُونَ دُعَاءَهُمْ، وَلَا يَنْفَعُونَهُمْ إِلَّا كَمَا يَنْفَعُ مَنْ يَسْطُرُ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ، وَيَدْعُوهُ لِيَرْتَفِعَ إِلَى فَمِهِ، وَهَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ لِأَلِهَتِهِمْ إِلَّا فِي ضِيَاعٍ.

وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ طَائِعِينَ وَمُكَرَّهِينَ، وَاللَّهُ تَسْجُدُ ظِلَالُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، وَآخِرِهِ. قُلْ -يَا مُحَمَّدٌ- لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ: مَنْ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَالِكُهُمَا وَمُدَبِّرُهَا؟ قُلْ: هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَقُلْ لَهُمْ: أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَا تَمْلِكُ جَلْبَ نَفْعٍ لِنَفْسِهَا، وَلَا دَفْعَ ضَرٍّ عَنْهَا، فَضَلًا عَنْ غَيْرِهَا؟! قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَيْئًا، وَالْبَصِيرُ؟! فَكَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمَوْجِدُ لِلَّهِ، وَالْمُشْرِكُ بِهِ، وَهَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ الَّتِي لَا يُرَى فِيهَا شَيْءٌ، وَالنُّورُ الَّذِي تُرَى فِيهِ الْأَشْيَاءُ بوضوح؟! فَكَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الشِّرْكُ وَالْإِيمَانُ، وَهَلْ خَلَقَ الشُّرَكَاءُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ مَعَ اللَّهِ؟ مِثْلَ خَلْقِ اللَّهِ، فَتَشَابَهَ خَلْقُهُمْ بِخَلْقِ اللَّهِ، فَجَعَلُوها شُرَكَاءَ لَهُ لَذَلِكَ؟ قُلْ -يَا مُحَمَّدٌ-: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ، هُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا ثَانِي لَهُ، الْقَاهِرُ لَجَمِيعِ خَلْقِهِ.

أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا، فَأَخَذَ كُلُّ وَادٍ بِحَسَبِ سَعَتِهِ، وَاحْتَمَلَ مَاءُ الْأَوْدِيَةِ زَبَدًا فَوْقَهُ، وَثَمَّ زَبَدٌ مِثْلُهُ يَخْرُجُ حِينَ يُوقَدُ النَّاسُ فِي النَّارِ؛ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ؛ لِإِدَابَتِهَا؛ طَلَبًا لِحُلِيِّةٍ يَتَزَيَّنُونَ بِهَا، أَوْ حِينَ يَوْقَدُونَ الْحَدِيدَ، وَالنُّحَاسَ، وَغَيْرَهُمَا؛ طَلَبًا لِمَتَاعٍ يَنْتَفِعُونَ بِهِ، كَالْأَوَانِي، فَثَمَّةٌ خَبِثٌ يَعْلُو فَوْقَ مَا أُذِيبَ مِنْ تِلْكَ الْمَعَادِنِ، كَمَا يَعْلُو الزَّبَدُ عَلَى الْمَاءِ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَهَكَذَا يُبَيِّنُ اللَّهُ مِثْلَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَلَا يَبْقَى وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ -مِنَ الْمَاءِ الصَّافِي وَالْمَعَادِنِ الْخَالِصَةِ- فَيَبْقَى فِي

الأرضِ وَيَسْتَقِرُّ، وكما مثل الله هذا المثل، كذلك يضرب لكم الأمثال الأخرى؛ لِيَتَّصِحَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ.

لِلَّذِينَ أَجَابُوا رَبَّهُمْ فَأَمَنُوا بِهِ وَأَطَاعُوهُ؛ الْجَزَاءُ الْحَسَنُ فِي الدُّنْيَا، وَالْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَبِّهِمْ وَلَمْ يُطِيعُوهُ؛ فَلَوْ أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ، لَقَدَّمُوهُ فِدَاءً؛ لَتَخْلِيصِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْلَيْكَ يُؤَخِّذُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ، وَمَسْكُتُهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ، وَبُنْسُ الْفِرَاشِ هِيَ.

أَهَذَا الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ -يَا مُحَمَّدُ- حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَّبِعُهُ- كَمَنْ هُوَ أَعْمَى عَنِ الْحَقِّ؟! لَا يَسْتَوِيَانِ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ بِآيَاتِ اللَّهِ فَيَنْتَفِعُ بِهَا أَصْحَابُ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ.

وَنُصِفَاتِ أُولِي الْأَبْطَابِ أَنَّهُمْ يُؤْفُونَ بِالْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّوَاحِي، وَلَا يَقْعُ مِنْهُمْ نَقْضُ لِهَذَا الْعَهْدِ الْمُؤَكَّدِ.

وَمِنْ صِفَاتِ أُولِي الْأَبْطَابِ أَنَّهُمْ يَصِلُونَ كُلَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِوَصْلِهِ؛ مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ الْعِبَادِ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، إِنْ خَالَفُوا أَوْامِرَهُ فَقَطَّعُوا مَا أَمَرَ هُمْ بِوَصْلِهِ، وَيَخَافُونَ مُنَاقَشَةَ اللَّهِ لَهُمْ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَعَدِمَ مَغْفِرَةَ ذُنُوبِهِمْ.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا، طَلَبًا لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَدَّاءُ الصَّلَوَاتِ كَمَا يَنْبَغِي، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي الْخَفَاءِ وَفِي الْعَلَنِ، وَيُدْفَعُونَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ السَّيِّئِ مِنَ الْأَعْمَالِ، أَوْلَيْكَ -الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَوْصَافَهُمْ- لَهُمُ الْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ.

لَهُمْ جَنَّاتُ إِقَامَةٍ دَائِمَةٍ، يَدْخُلُونَهَا هُمْ وَالصَّالِحُونَ مِنْ آبَائِهِمْ
وَأُمَّهَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ
بَابٍ؛ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِمْ، وَتَهْنِئَتِهِمْ

تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ: سَلِّمَ اللَّهُ مِنْ الشُّرُورِ فِي الْآخِرَةِ؛
لصَّبْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَنِعَمَ عَاقِبَةُ الدَّارِ الْجَنَّةِ.

وَالَّذِينَ لَا يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ، مِنْ بَعْدِ تَأْكِيدِهِ عَلَيْهِمْ، وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِوَصْلِهِ كَالْأَرْحَامِ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْكَفْرِ
وَالْمَعَاصِي وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ مَطْرُودُونَ مِنْ رَحْمَةِ
اللَّهِ، وَلَهُمْ مَا يَسُوؤُهُمْ فِي جَهَنَّمَ.

اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُوسِّعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ،
بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ، وَفَرَحَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ وَسَّعَ اللَّهُ أَرْزَاقَهُمْ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا
فَرَحَ بَطَرٍ وَطُغْيَانٍ، وَمَا نَعِيمُ الدُّنْيَا فِي جَنْبِ نَعِيمِ الْآخِرَةِ إِلَّا
شَيْءٌ حَقِيرٌ، زَائِلٌ.

وَيَقُولُ كُفَّارُ قَوْمِكَ -يَا مُحَمَّدٌ-: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مُعْجَزَةٌ
مِنْ رَبِّهِ؛ لِنُؤْمِنَ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ! فَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ،
فَيَخْذُلُهُ عَنِ الْإِيمَانِ بِي، وَيَهْدِي مَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ فَيُؤَفِّقُهُ لِاتِّبَاعِي،
فَلَيْسَتْ الْهَدَايَةُ بِأَيْدِيكُمْ حَتَّى تَعْلِقُوهَا بِحُصُولِ الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي
تَقْتَرِحُونَهَا.

وَيَهْدِي اللَّهُ الْمُنِيبِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَسَكَّنُ قُلُوبُهُمْ وَيَزُولُ قَلْقَاهَا
بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ ذِكْرِهِ: الْقُرْآنُ، وَذِكْرُ اللَّهِ يَحَقِّقُ ذَلِكَ،
وَحَرِيٌّ أَنْ تَطْمَئِنَّ الْقُلُوبُ لِذِكْرِ اللَّهِ.

الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَقِّ، وَقَامُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لَهُمْ حَالٌ
طَيِّبَةٌ، وَحُسْنُ مَرْجِعٍ؛ بِمَا يَنَالُونَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، وَمِنْ جَمَلَةِ نَعِيمِهِمْ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةُ طُوبَى.

كما أرسلنا الأنبياءَ بوحينا من قبلك -يا محمدُ- أرسلناك بهذا القرآن إلى قومٍ سبقتهم أممٌ أرسلنا لهم رسلاً؛ لَتَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ، والحالُ أنَّ قَوْمَكَ يَكْفُرُونَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَيُنْكِرُونَ اسْمَ اللَّهِ (الرَّحْمَنِ)، فَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ أَنَا مُؤْمِنٌ بِهِ؛ فَهُوَ رَبِّي، وهو اللَّهُ الَّذِي لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاهُ، عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ اعْتَمَدْتُ فِي جَمِيعِ أُمُورِي، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ مَرْجِعِي فِي جَمِيعِ شُؤُونِي.

وَلَوْ أَنَّ كِتَابًا مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، يَكُونُ مَصْدَرًا لِإِجَادِ الْعَجَائِبِ، بَحِثْ يَقْرَأْ عَلَى الْجِبَالِ فَتَنْزَحْزَحُ، أَوْ عَلَى الْأَرْضِ فَتَتَصَدَّعُ، أَوْ عَلَى الْمَوْتَى فَيَسْمَعُونَ وَيُجِيبُونَ- لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْمُتَّصِفَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ يَقْتَرِحُونَ آيَةً غَيْرَهُ؟! إِنَّ مَرْجِعَ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَيْهِ وَحْدَهُ، فَيَفْعَلُ مَا تَقْتَضِيهِ حُكْمُهُ وَمِنْ ذَلِكَ إِضْلَالٌ مَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَ، أَفَلَمْ يَعْلَمْ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ كُلَّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ غَيْرِ إِجَادِ مُعْجَزَةٍ؟ وَلَا يَزَالُ الْكَافَرُ يَصِيبُهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ؛ بَلَاءٌ، أَوْ يَقَعُ ذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ وَهُوَ مُوْتَهُمْ، أَوْ قِيَامُ السَّاعَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا جَاءَ حَلٌّ بِهِمْ عَذَابُهُ الشَّدِيدُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ.

لَنْ اسْتَهْزَأَ بِكَ كَافَرُ قَوْمِكَ -يَا مُحَمَّدُ-، فَاعْلَمْ أَنَّهُ اسْتَهْزَأَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ بِالرَّسْلِ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْهَلْتَهُمْ مَدَّةً، ثُمَّ أَهْلَكْتَهُمْ حِينَ أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابِي الشَّدِيدُ لَهُمْ. أَيْسَتَوِي الْقَائِمُ عَلَى شُؤُونِ عِبَادِهِ، الْعَالِمُ بِهِمْ، الرَّقِيبُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، الْحَافِظُ لَهَا، وَالْمُجَازِي عَلَيْهَا، مَعَ مَنْ لَيْسَ بِهِذِهِ الصِّفَةِ؟! كَلَّا، وَمَعَ ذَلِكَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ مِنْ خَلْقِهِ يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ! فَقُلْ لَهُمْ -يَا مُحَمَّدُ-: سَمُّوا هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءَ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي

يَسْتَحِقُّونَهَا: فهل هي خالقة رازقة، محيية مميتة، أم هي مخلوقة، لا تملك ضرًا ولا نفعًا؟ أم أنكم تُخبرون الله بأن معه شركاء في الأرض، وهو لا يعلم بذلك؟ أم أنكم ادّعيتم لله شركاء بظواهر أقوالكم التي لا حقيقة لها، وإنما هي مجرد ظن؟ إنما زين لهم باطلهم، وصرفوا لكفرهم بالله عن الحق، ومن يضلّه الله، فلا أحد يُوقّفه إلى الخير.

لهؤلاء الكفار عذاب في الدنيا، وأما عذابهم في الآخرة فأشد وأغلظ، وما لهم أحد يقيهم من عذاب الله.

صفة الجنة التي وعد الله بها المتقين أن الأنهار تجري من تحت قصورها وأشجارها، وما يؤكل فيها من ثمارها، لا ينفد ولا ينقطع، وظلها دائم لا يزول، تلك الجنة هي عاقبة المتقين، وعاقبة الكافرين بالله النار.

والذين آمنوا بك -يا محمد- من اليهود والنصارى، يفرحون بالقرآن، ومن أهل الملل المتحزبين من يكذب ببعض ما في القرآن، قل: إنما أمرني الله بعبادته وحده، أَدْعُو إِلَى طَاعَتِهِ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعِي فِي أُمُورِي، وَإِلَيْهِ مَصِيرِي.

وكما أنزلنا الكتاب على الرسل السابقين بلغاتهم، كذلك أنزلنا عليك -يا محمد- القرآن مُحْكَمًا؛ لِتَحْكُمَ بِهِ، بِلِسَانِ الْعَرَبِ، وَلَنَنْتَبِعَتْ أَهْوَاءَ تِلْكَ الْأَحْزَابِ الْكَافِرَةِ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ يَنْصُرُكَ وَيَتَوَلَّكَ، وَلَا يَقِيلُكَ عَذَابَ اللَّهِ.

ولقد بعثنا إلى الأمم الماضية رسلًا من قبلك -يا محمد-، فكانوا بشرًا مثلهم، جعلنا لهم أزواجًا، وأولادًا؛ فَلَسْتَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَشَرِيٍّ، حَتَّى يَسْتَغْرِبَ قَوْمُكَ إِرْسَالَكَ، وَلَا يَقْدِرُ أَيُّ

رَسُولٍ عَلَى الْإِتْيَانِ بُمُعْجَزَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. لِكُلِّ أَجَلٍ قَدَرَهُ اللَّهُ،
كِتَابٌ أُتْبِتَ فِيهِ وَقْتُ وَقُوعِهِ.

يُمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَقْدَارِ الْمَكْتُوبَةِ، وَيُبْقِي مِنْهَا مَا يَشَاءُ،
وَذَلِكَ فِيمَا يَكُونُ فِي أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ مِنْ صُحُفٍ، وَعِنْدَ اللَّهِ أَصْلُ
الْكِتَابِ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ

وَإِنْ أَرَيْنَاكَ فِي حَيَاتِكَ -يَا مُحَمَّدُ- بَعْضَ الْعَذَابِ الَّذِي نَعْدُ بِهِ
الْمُشْرِكِينَ، أَوْ تَوْفِينَاكَ قَبْلَ ذَلِكَ؛ فَلَيْسَ عَلَيْكَ سِوَى تَبْلِيغِهِمُ
الْحَقِّ، وَعَلَيْنَا نَحْنُ مُحَاسِبَةُ الْعِبَادِ.

أَوَلَمْ يَرَ الْكُفَّارُ أَنَّا نَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ، وَنَفْتَحُ لَهُمْ دِيَارَ
الْمُشْرِكِينَ أَرْضًا بَعْدَ أَرْضٍ، فَتَنْقُصُ دَارَ الْكُفَّارِ؟ أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ
بِذَلِكَ؟ وَاللَّهُ يَقْضِي فِي خَلْقِهِ، وَلَا يُبْطِلُ أَحَدٌ حُكْمَهُ، فَمَا حَكَمَ اللَّهُ
بِهِ مِنَ الْعِقَابِ لَا يُبْطِلُهُ أَحَدٌ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ بِرُسُلِهِمْ، فَمَكَرَ اللَّهُ
بِهِمْ، فَلَهُ الْمَكْرُ كُلُّهُ؛ لِأَنَّ أَسْبَابَ الْمَكْرِ بِيَدِهِ، يَعْلَمُ اللَّهُ مَا تَعْمَلُ كُلُّ
نَفْسٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَسْعَى فِيهِ مُشْرِكُو قَوْمِكَ -يَا مُحَمَّدُ- مِنَ الْمَكْرِ
بِكَ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَنْ تَكُونُ عَاقِبَةُ الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَيَقُولُ الْكُفَّارُ: لَسْتُ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ -يَا مُحَمَّدُ- فَقُلْ لَهُمْ:
يَكْفِينِي اللَّهُ شَاهِدًا عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ بِصِدْقِي وَكَذِبِكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ
الْكِتَابِ؛ يَشْهَدُ بِالْحَقِّ.

هَذِهِ الْحُرُوفُ الْمَقْطَعَةُ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِهَا هَذِهِ السُّورَةُ
وغيرُهَا، تَأْتِي لِبَيَانِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ؛ حَيْثُ تُظْهَرُ عَجَزُ الْخَلْقِ
عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مَرْكَبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ
الَّتِي يَتَحَدَّثُونَ بِهَا! هَذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ عَظِيمٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ -يَا
مُحَمَّدُ- لَتُخْرِجَ بِهِ النَّاسَ -عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ- مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ

وَالْجَهْلَ وَالْمَعَاصِي إِلَى نَوْرِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالطَّاعَةِ -وذلك بإِرادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ لَهُمْ- إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ الْمُسْتَقِيمِ طَرِيقِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ، الْمَحْمُودِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَشَرِّعِهِ وَقَدَرِهِ.

اللَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، الَّذِي مِنْ صِفَتِهِ أَنَّهُ يَمْلِكُ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ مِلْكُهُ وَعَبِيدُهُ، وَهَلَاكُ وَشِدَّةُ لَمَنْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ يَنَالُهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

مِنْ صِفَاتِ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ يَجْبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَيَخْتَارُونَهَا وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَيَصْرِفُونَ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ مَائِلًا عَنِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ، بِتَحْرِيفِهِ وَتَبْدِيلِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِمُوَافَقَةِ أَهْوَائِهِمْ وَقَضَاءِ أَغْرَاضِهِمْ، أُولَئِكَ الْكُفَّارُ -الموصوفون بهذه الصِّفَاتِ- فِي ذَهَابٍ بَعِيدٍ عَنِ الْحَقِّ. وَمَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا إِلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَلَّغَهُ قَوْمَهُ الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ؛ لِيَفْهَمَهُمْ وَيُوضِّحَ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمْ، فَبَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ يَضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ إِضْلَالَهُ، فَيَخَذُلُهُ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَيُوفِّقُ مَنْ يَشَاءُ هِدَايَتَهُ إِلَى الْحَقِّ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ عَلَى مَشِيئَتِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الَّذِي يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ، وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ، وَقُلْنَا لَهُ: ادْعُ قَوْمَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ؛ لِيَخْرُجُوا مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالْمَعَاصِي إِلَى نَوْرِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالطَّاعَةِ، وَذَكِّرْ قَوْمَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِآيَاتِ نِعَمِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ، وَبِآيَاتِ نِقَمِهِ وَبَطْشِهِ وَانْتِقَامِهِ؛ وَذَلِكَ لِيَشْكُرُوا اللَّهَ،

وَيَحْذَرُوا عَذَابَهُ، إِنَّ فِي التَّذْكِيرِ بِنِعَمِ اللَّهِ وَأَيَّامِهِ لَدَلَالَاتٍ وَعِبْرًا وَمَوَاعِظَ لِكُلِّ مَنْ كَانَ عَظِيمَ الصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَعَلَى الْبَلَاءِ، عَظِيمَ الشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ.

وَادْكُرُوا - يَا مُحَمَّدُ - قَوْلَ مُوسَى لِقَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: اذْكُرُوا بِقُلُوبِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ إِنْعَامَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، حِينَ أَنْجَاكُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، يُذَيِّقُكُمْ آلَ فِرْعَوْنَ عَذَابًا سَيِّئًا شَدِيدًا، وَيُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ الذُّكُورَ الْمَوْلُودِينَ، وَيَتَزَكُونَ إِنْ أَنْتُمْ دُونَ قَتْلِ؛ مِنْ أَجْلِ جَعْلِهِنَّ خَدَمًا وَأَرْقَاءً، وَفِي عَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ لَكُمْ اخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ عَظِيمٌ، وَفِي إِنْجَائِنَا لَكُمْ مِنْهُمْ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَظِيمَةٌ.

وَادْكُرُوا حِينَ أَعْلَمَكُمْ رَبُّكُمْ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ اللَّهُ عَلَى نِعَمِهِ بَطَاعَتِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، لَيُزِيدَنَّكُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا بَطَاعَتِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ؛ فَإِنَّ عِقَابَهُ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ شَدِيدٌ، فَيُصِيبُكُمْ مِنْهُ مَا يَسْلُبُ تِلْكَ النِّعَمَ، وَيُحِلُّ بِكُمْ النِّقَمَ.

وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: إِنْ تَكْفُرُوا بِنِعَمِ اللَّهِ أَنْتُمْ وَجَمِيعُ مَنْ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَعَنْ شُكْرِهِمْ لَهُ، مُحَمَّدٌ قَدْ اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ لِذَاتِهِ لِكَثْرَةِ إِنْعَامِهِ، وَإِنْ لَمْ تَشْكُرُوهُ، وَهُوَ حَمِيدٌ فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ خَبَرُ الْأَمَمِ الَّذِينَ مَضَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ؛ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ؟ وَأَمَمٌ كَثِيرَةٌ مِنْ بَعْدِهِمْ، لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ وَأَخْبَارَهُمْ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، جَاءَ كُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ رَسُولُهُمُ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ الدَّامِغَةِ، وَالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ، فَرَدَّ الْمَكْذِبُونَ مِنَ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ؛ لِيَعَضُّوهَا غِيظًا، مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، الَّذِي فِيهِ تَسْفِيَةٌ أَحْلَامِهِمْ،

وإبطال آلهتهم، وقالوا لرسلهم: إِنَّا كَفَرْنَا بِالَّذِي تَزْعُمُونَ أَنكُمْ أَرْسَلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ يَوْجِبُ لَنَا التُّهْمَةَ وَالرَّيْبَةَ مِنْ حَقِيقَةِ مَا جِئْتُمُونَا بِهِ؛ فَلَسْنَا نَصَدِّقُكُمْ فِيهِ.

قالت الرسل لأممهم: أفي وجود الله وإفراذه بالعبادة دُونَ غَيْرِهِ شَكٌّ؟! خالق السموات والأرض، وموجدِهما مِنَ العَدَمِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، يَدْعُوكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ وَفِي كُتُبِهِ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحَدِّهِ وَطَاعَتِهِ؛ لَيْسَ شَرٌّ عَلَيْكُمْ بَعْضُ ذُنُوبِكُمْ، وَيتجاوزَ عَنْ مَوَاحِدَتِكُمْ بَهَا، فَلَا يَعَاقِبُكُمْ عَلَيْهَا، وَيُؤَخِّرُكُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى مُنْتَهَى أَعْمَارِكُمْ، فَلَا يُعَاجِلُكُمْ بِالْعَذَابِ، قَالَ الْكَفَّارُ لِرُسُلِهِمْ: مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فِي الصُّورَةِ وَالْهَيْئَةِ، فَكَيْفَ نُطِيعُكُمْ؟! وَكَيْفَ تَفْضُلُونَا بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ؟! إِنَّمَا تَرِيدُونَ بِدَعْوَتِكُمْ هَذِهِ أَنْ تَصْرِفُونَا عَنْ عِبَادَةِ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، فَاتُّوْنَا بِمُعْجَزَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَحُجَّةٍ دَامِغَةٍ تُبَيِّنُ لَنَا صِحَّةَ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَنَعْلَمَ أَنْكُمْ عَلَى الْحَقِّ.

قالت الرسل لأولئك الكفار من أقوامهم: صَدَّقْتُمْ، مَا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، مِثْلُكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَنْفَضِلُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِالرَّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، وَلَا نَقْدِرُ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِحُجَّةٍ وَآيَةٍ كَمَا تَقْتَرِحُونَ، إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، وَعَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ فَلْيَعْتَمِدِ الْمُؤْمِنُونَ فِي جَلْبِ مَصَالِحِهِمْ، وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ، وَلْيَتَّقُوا بِهِ فِي تَيْسِيرِ جَمِيعِ أُمُورِهِمْ.

قالت الرسل لأممهم: وَأَيُّ عَذْرِ لَنَا فِي أَلَّا نَعْتَمِدَ عَلَى اللَّهِ وَنَتَّقَ بِهِ، وَالحَالُ أَنَّهُ قَدْ أَرْشَدَنَا وَوَفَّقَنَا لِسُلُوكِ الطَّرِيقِ الْمُوَصَّلِ إِلَى رَحْمَتِهِ، الْمُنْجِي مِنَ سَخَطِهِ وَنِقْمَتِهِ؟! وَاللَّهُ، لَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا نَلْقَى مِنْكُمْ مِنَ الْأَذَى بِسَبَبِ اسْتِمْرَارِنَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَةِ

اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ فَلْيَعْتَمِدِ الْمُتَوَكِّلُونَ
الوَاقِفُونَ بِاللَّهِ، وَلْيَثْبُتُوا عَلَى تَوَكُّلِهِمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ لِرُسُلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ لِلتَّوْحِيدِ:
وَاللَّهِ، لَنُطْرِدَنَّكُمْ مِنْ بِلَادِنَا إِلَّا أَنْ تَعُودُوا إِلَى دِينِنَا، فَأَوْحَى اللَّهُ
إِلَى رَسُولِهِ قَائِلًا لَهُمْ: لَنُهْلِكَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
بَوَضْعِهِمُ الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، وَصَرَفَهَا لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا.
وَلَنَنْصُرَنَّكُمْ وَأَتْبَاعَكُمْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكُفَّارِ، وَنَجْعَلُكُمْ
تَسْكُنُونَ أَرْضَهُمْ مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِهَا لَهُمْ، ذَلِكَ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا عَلَى
الْكُفَّارِ، وَالنَّمَكِيُّ فِي الْأَرْضِ، يَتَحَقَّقُ لِمَنْ خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَخَافَ مِنْ وَعِيدِي وَعَذَابِي، فَاتَّقَانِي بِطَاعَتِي،
وَتَجَنَّبِ مَعْصِيَتِي.

وطلبت الرُّسُلُ مِنَ اللَّهِ النَّصْرَ عَلَى أَقْوَامِهِمْ وَإِهْلَاكَهُمْ،
وَحَسِرَ وَهَلَكَ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ عَلَى الْحَقِّ، مُعَانِدٍ لَهُ.
مِنْ أَمَامِ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ نَارُ جَهَنَّمَ تَنْتَظِرُهُ، فَهُوَ صَائِرٌ إِلَيْهَا
فِي الْآخِرَةِ، وَيُسْقَى فِي جَهَنَّمَ مِنَ الْقَيْحِ وَالْدِّمِ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ
أُبدَانِ أَهْلِ النَّارِ.

يَتَحَسَّى ذَلِكَ الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ الصَّدِيدُ، وَيَشْرَبُهُ قَهْرًا - مِنْ شِدَّةِ
عَطَشِهِ - عَلَى جَرَعَاتٍ، وَلَا يَكَادُ يَبْتَلِغُهُ؛ مِنْ شِدَّةِ خُبْنِهِ وَكَرَاهَتِهِ،
وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ وَالْأَمَةُ وَشِدَّتُهُ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ فِي جَسَدِهِ، وَمِنْ كُلِّ
الْجِهَاتِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ مِنَ الْعَذَابِ، وَمِنْ
أَمَامِهِ عَذَابٌ آخَرٌ قَوِيٌّ شَدِيدٌ يَنْتَظِرُهُ غَيْرُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ.
مِثْلُ أَعْمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ كَرَمَادٍ طِيرَتْهُ وَفَرَّقَتْهُ الرِّيحُ
الْقَوِيَّةُ فِي يَوْمٍ يَشْتَدُّ فِيهِ هُبُوبُهَا، فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الرَّمَادِ شَيْءٌ، فَكَذَلِكَ
أَعْمَالُ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ الَّتِي يَعْمَلُهَا الْكَافِرُونَ؛ يُبْطِلُهَا الْكُفْرُ، وَيَذْهَبُ

ثَوَابَهَا، وَلَا يَرَوْنَ لَهَا أَيَّ مَنْفَعَةٍ، مَثَلَمَا لَا يُقَدَّرُ عَلَى جَمْعِ الرَّمَادِ فِي الْيَوْمِ الْعَاصِفِ، أَعْمَالُهُمُ الَّتِي بَطَلَتْ وَفَقَدُوا ثَوَابَهَا لَمْ تَكُنْ عَلَى هُدًى وَاسْتِقَامَةٍ، فَكَانُوا فِي خَطِئٍ وَانْحِرَافٍ بَعِيدٍ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ، لَا يُمْكِنُ مَعَهُ تَدَارُكُ تِلْكَ الْخَسَارَةِ الْكَبِيرَةِ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَحْدَهُ بِغَيْرِ ظَهِيرٍ وَلَا مُعِينٍ، لِأَمْرِ عَظِيمٍ؛ لِيَعْبُدَهُ الْخَلْقُ، وَيَعْرِفُوا مَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُفْنِيَكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- إِنْ عَصَيْتُمُوهُ، أَفْنَاكُمْ، وَيَأْتِ بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ أَفْضَلَ وَأَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ.

وَمَا إِذْهَابُكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَالْإِتْيَانُ بِخَلْقٍ آخَرَ مَكَانَكُمْ، بِمُتَمَتِّعٍ عَلَى اللَّهِ وَلَا مُتَعَذِّرٍ، بَلْ هُوَ سَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ.

وظَهَرُوا جَمِيعًا مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ وَحْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مُجْتَمِعِينَ فِي أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ لَا يَخْفَى فِيهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَقَالَ الْأَتْبَاعُ لِقَادَتِهِمْ وَسَادَتِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ فِي الدُّنْيَا عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا أَتْبَاعًا نَطِيعُكُمْ وَنَقْلُكُمْ، فَأُضِلَلْتُمُونَا، فَهَلْ أَنْتُمْ دَافِعُونَ عَنَّا الْيَوْمَ شَيْئًا -وَلَوْ قَلِيلًا- مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؟ قَالَ الْقَادَةُ الْمُتَبَوِّعُونَ لِاتِّبَاعِهِمْ: لَوْ هَدَانَا اللَّهُ إِلَى الْحَقِّ، لَهَدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ، فَضَلَّلْنَا وَأَضَلَّلْنَاكُمْ، فَحَقٌّ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ، سِوَاءَ عَلَيْنَا أَجَزَ عَنَّا مِنَ الْعَذَابِ أَمْ صَبَرْنَا عَلَيْهِ، مَا لَنَا فِي كِلَا الْحَالَيْنِ مِنْ مَهْرَبٍ وَلَا مَلْجَأٍ!

وَقَالَ إِبْلِيسُ لِاتِّبَاعِهِ لَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ عَلَى السِّنَةِ رُسُلُهُ وَعَدًّا صَادِقًا مُتَحَقِّقًا لَا يُخْلَفُ بِوُقُوعِ الْبَعْثِ، وَإِثَابَةِ الْمُطِيعِ بِالْجَنَّةِ، وَالْعَاصِيِ بِالنَّارِ، فَوْقَى بَوْعِهِ، وَوَعَدْتُمْ أَنْ لَا بَعْثَ، وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ، وَوَعَدْتُمْ النُّصْرَةَ، فَأَخْلَفْتُ وَعْدِي لَكُمْ، وَكَذَّبْتُ عَلَيْكُمْ، وَمَا أَظْهَرْتُ لَكُمْ

أَيَّ حُجَّةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِي فِيمَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَمَعْصِيَتِهِ، فَأَطَعْتُمُونِي وَاتَّبَعْتُمُونِي بِلَا بُرْهَانٍ، فَلَا تَلُومُونِي الْيَوْمَ عَلَى طَاعَتِكُمْ وَاتِّبَاعِكُمْ لِي بِلَا حُجَّةٍ، وَلَوْ مَوَا أَنْفُسَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؛ فَأَنْتُمْ السَّبَبُ فِي دُخُولِكُمُ النَّارَ، مَا أَنَا بِمُغِيثِكُمْ وَمُنْقِذِكُمْ مِنَ النَّارِ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُغِيثِينَ وَمُنْقِذِينَ لِي مِنَ النَّارِ؛ فَكُلُّ مَنْ أَلِهَ قِسْطُهُ مِنَ الْعَذَابِ، إِنِّي جَحَدْتُ وَتَبَرَّأْتُ مِنْ جَعَلِكُمْ لِي شَرِيكًا لِلَّهِ فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ مِنْ قَبْلُ فِي الدُّنْيَا، إِنَّ الْكَافِرِينَ - الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بَوَضْعِهِمُ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا - لَهُمْ عَذَابٌ مُوَجَّعٌ.

وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ، فَأَطَاعُوا اللَّهَ تَعَالَى وَاجْتَنَبُوا مَعْصِيَتَهُ؛ جَنَاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ مَا عَلَا مِنْهَا، كَالْغُرَفِ وَالْمَبَانِي وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِهَا، مَاكثِينَ فِي الْجَنَّةِ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ، تَحِيَّةٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَتَحِيَّةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ لَهُمْ: سَلَامٌ.

أَلَمْ تَعْلَمْ - يَا مُحَمَّدٌ - كَيْفَ مَثَّلَ اللَّهُ مَثَلًا، وَشَبَّهَ شَبَّهًا كَلِمَةَ طَيِّبَةَ - وَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، وَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةِ الثَّمَرَةِ، كَالنَّخْلَةِ؟ جُنُورُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ ثَابِتَةٌ فِي الْأَرْضِ، وَأَغْصَانُهَا مَرْتَفَعَةٌ نَحْوَ السَّمَاءِ، فَكَذَلِكَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ؛ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَرَاسِخٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، وَفُرُوعُهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ صَاعِدَةٌ إِلَى السَّمَاءِ، مَرْفُوعَةٌ إِلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ.

تُخْرَجُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ ثَمَرَهَا كَامِلًا كَثِيرًا طَيِّبًا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَسَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَنَهَارٍ، وَصَيْفٍ وَشِتَاءٍ، بِمَشِيئَةِ خَالِقِهَا وَأَمْرِهِ وَتَيْسِيرِهِ، وَكَذَلِكَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ؛ لَا تَزَالُ تُثْمِرُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ لِلْمُؤْمِنِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَلَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ

في كلِّ حين، ويمثِّل الله الأمثال للنَّاس، ويُشَبِّه لهم الأشْباء، ويُبَيِّنُها لهم؛ لِيَتَذَكَّرُوا حُجَّةَ الله عليهم، وَيَفْهَمُوا ما أَراد الله منهم، فَيَعْتَظُوا، وَيَفْعَلُوا ما أَمَرَهم به، وَيَجْتَنِبُوا ما نَهَاهم عنه.

ومَثَلُ كَلِمَةِ خَبِيثَةٍ -وهي كَلِمَةُ الْكُفْرِ- كَشَجَرَةٍ كَرِيهَةِ الطَّعْمِ، مِثْلُ الْحَنْظَلِ، لا أَصْلَ لها ثابِتٌ في الأَرْضِ، ولا ارْتِفاعَ لِفُرُوعِها في السَّمَاءِ، وليس لها ثَمَرَةٌ ولا مَنفَعَةٌ، اسْتَوْصَلَتْ هَذِهِ الشَّجَرَةُ الْخَبِيثَةُ، واقْتُلَعَتْ مِنْ أَصْلِها؛ فَلَيْسَ لها عُروْقٌ وَجُذُورٌ ثابِتَةٌ في الأَرْضِ تُمَسِّكُها، وكذلك كَلِمَةُ الْكُفْرِ لا أَصْلَ لها ولا فَرْعَ، ولا مَنفَعَةَ فيها؛ ولا يَعمَلُ صاحِبُها خَيْرًا ولا يَقُولُهُ، ولا يَصْعَدُ عَمَلُهُ ولا قَوْلُهُ إلى السَّمَاءِ، ولا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ شَيْءٌ!

يُثَبِّتُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَوْلِ الصَّادِقِ الْحَقِّ، الَّذِي ثَبَتَ في قُلُوبِهِم، وَتَمَكَّنَ فيها، واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ نَفُوسُهُمْ -وهو شَهادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ- فَيُبَيِّنُهم اللهُ في حَيَاتِهِم الدُّنْيا على إيمانِهِم، وَيُسَلِّمُهم مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَيُبَيِّنُهم أَيْضًا في قُبُورِهِم عِنْدَ سِوَالِ الْمَلَكِينَ، وَيَخْذُلُ اللهُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ -بِسَبَبِ ظُلْمِهِم أَنْفُسَهُمْ- فَيَجْعَلُهم في حَبِيرَةٍ وَعَمَايةٍ، فلا يُوقِّفُهم إلى الْحَقِّ في الْحياةِ الدُّنْيا، ولا يُوقِّفُهم في قُبُورِهِم إلى الْقَوْلِ الصَّائِبِ عِنْدَ السِّوَالِ، وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ مِنْ هِدايةِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْبِيهِتِهِم، وإِضْلالِ الظَّالِمِينَ وَخِذْلانِهِم.

أَلَمْ تَنْظُرْ -يا مُحَمَّدُ- إلى كُفَّارِ قُرَيْشٍ، الَّذِينَ غَيَّرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِم بِبَعَثِكَ رَسولًا إِلَيْهِم مِنَ اللهِ، فَكَفَرُوا بِاللَّهِ وَكَذَّبُوا، فلم يُؤْمِنُوا بِرِسالَتِكَ، ولم يَشْكُرُوا اللهَ عَلَيْها؟! وَأَنْزَلُوا قَوْمَهُم -الَّذِينَ اتَّبَعُوهم مِنْ قُرَيْشٍ- دَارَ الْهَلَاكِ.

ودارُ الهلاكِ هي جهنَّمُ يَدْخُلُونَهَا، وَيُحِيطُ بِهِمْ حَرُّهَا مِنْ
جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، وَبِئْسَ الْمُسْتَقَرُّ جَهَنَّمُ!
وَجْعَلْ أَوْلَنَكَ الْكُفَّارُ لِلَّهِ نُظْرَاءَ وَشُرَكَاءَ، يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ؛ كَيْ
يُضِلُّوا النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ، قُلْ
لَهُمْ -يَا مُحَمَّدٌ: اسْتَمْتِعُوا فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ؛ فَإِنَّ مَرْجِعَكُمْ
فِي الْآخِرَةِ إِلَى النَّارِ.

قُلْ -يَا مُحَمَّدُ- لِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ يُقِيمُوا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ
الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ، بِحُدُودِهَا فِي أَوْقَاتِهَا، وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
مِنْ فَضْلِنَا، فَيُؤْتُوا مَا أَوْجِبْتُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقُوقِ سِرًّا وَإِعْلَانًا،
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا
سَبِيلَ إِلَى اسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ، لَا بِمُعَاوَضَةٍ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ، وَلَا بِهَبَةٍ
خَلِيلٍ وَصَدِيقٍ؛ فَكُلُّ أَمْرٍ لَهُ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.

اللَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
مِنَ الْعَدَمِ، وَأَبْدَعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ
مَطَرًا، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ رِزْقًا لَكُمْ تَعِيشُونَ بِهِ،
وَذَلَّلَ لَكُمْ السُّفُنَ لِتَجْرِيَ بِكُمْ فِي الْبَحْرِ بِإِذْنِهِ، فَيَسَّرَ لَكُمْ صُنْعَهَا،
وَجَعَلَهَا طَافِيَةً، وَحَفَظَهَا لِتَحْمِلَكُمْ، وَذَلَّلَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ لِتَشْرَبُوا مِنْ
مِيَاهِهَا، وَتَسْقُوا بِهَا زُرُوعَكُمْ وَأَنْعَامَكُمْ.

وَذَلَّلَ اللَّهُ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يَدَابَانَ فِي سَيْرِهِمَا، فَيَتَعَاقَبَانِ
عَلَيْكُمْ بِلَا انْقِطَاعٍ؛ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِكُمْ، كَحِسَابِ أَرْزَاقِكُمْ، وَضَبْطِ
أَوْقَاتِكُمْ، وَنَفْعِ أَعْدَانِكُمْ، وَحَيَوَانَاتِكُمْ، وَزُرُوعِكُمْ، وَثَمَارِكُمْ،
وغير ذلك، وَذَلَّلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَتَعَاقَبَانِ عَلَيْكُمْ؛ فَجَعَلَ اللَّيْلَ
لِتَسْكُنُوا فِيهِ؛ رَاحَةً لِأَعْدَانِكُمْ، وَجَعَلَ النَّهَارَ لِتَبْتَغُوا فِيهِ مِنْ فَضْلِهِ.

وأعطاكم الله -أيها الناس- وهياً لكم من كُلِّ ما تحتاجون إليه، ممَّا تسألونه إياه، سواءً بلسانِ حالكم أو مقالكم، وإن تعذُّوا نِعَمَ الله عليكم، لا تُطبقوا إحصاءَ عَدَدِها، والقيامَ بِحَصَرِها؛ لكثرتها، فضلاً عن القيامِ بِشُكْرِها، فلمْ تُبَدِّلونَ نِعْمَةَ الله كُفْراً؟! وهلاً استعنتُم بها على طاعته؟ إِنَّ الإنسانَ لِعَظِيمُ الظُّلْمِ لِنَفْسِهِ، بوضعه العبادةَ في غير مَوْضِعِها، وتجَرُّه على عصيانِ رَبِّه، شديدُ الجُحودِ لِنِعَمِ الله عليه.

واذْكُرْ -يا مُحَمَّدُ- إِذْ قالَ إبراهيمُ: رَبِّ، اجْعَلْ مَكَّةَ حَرَمًا آمِنًا لأَهْلِهِ وَسُكَّانِهِ، وَأَبْعِدْنِي وَأَبْنَائِي عَنِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ. قالَ إبراهيمُ: رَبِّ، إِنَّ الْأَصْنَامَ قَدْ حَرَفَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ؛ بِسَبَبِ افْتِنائِهِمْ بِها، وَعِبَادَتِها، فَمَنْ تَبِعَنِي عَلَى الْإِيمَانِ بِكَ وَتَوْحِيدِكَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ دِينِي، يَسْتُنُّ بِسُنَّتِي، وَيَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِي، وَمَنْ عَصَانِي فَكُفِّرْ، وَخَالَفَ أَمْرِي، فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ بِتَوْبِكَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُؤْمِنُوا، وَهَدَايَتِهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَتَوْفِيقِهِمُ لِلرُّجُوعِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ.

رَبَّنَا، إِنِّي أَسْكَنْتُ بَعْضَ وَلَدِي -وهو إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ- فِي وادٍ لَا زَرْعَ فِيهِ وَلَا مَاءَ، عِنْدَ بَيْتِكَ الَّذِي يَحْرُمُ اسْتِحْلَالَ حُرْمَاتِهِ، وَالاسْتِخْفَافَ بِحَقِّهِ، وَالتَّعَرُّضَ لَهُ أَوْ لأَهْلِهِ بِسُوءٍ، رَبَّنَا، إِنِّي أَسْكَنْتُ بَعْضَ ذُرِّيَّتِي فِي هَذَا الْوَادِي الْمَقْفِرِ؛ كَيْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمَحْرَمِ، وَيَعْمُرُوهُ بِذِكْرِكَ وَعِبَادَتِكَ وَحَدِّكَ، فَاجْعَلْ قُلُوبَ بَعْضِ النَّاسِ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ شَوْقًا إِلَى حَجِّ بَيْتِكَ الْحَرَامِ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَارِ بِأَنْوَاعِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، بِجَلْبِهَا إِلَيْهِمْ؛ لِيَشْكُرُوكَ عَلَى مَا رَزَقْتَهُمْ، وَيَكُونَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى طَاعَتِكَ.

رَبَّنَا، إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي فِي قُلُوبِنَا عِنْدَ مَسْأَلَتِنَا وَدُعَائِكَ، وَفِي
غَيْر ذَلِكَ مِنْ أحوَالِنَا، وَتَعْلَمُ مَا نَجْهَرُ بِهِ مِنْ دُعَائِنَا، وَغَيْر ذَلِكَ
مِنْ أَقْوَالِنَا وَأَعْمَالِنَا، وَلَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ أَيُّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَا فِي السَّمَاءِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي -رَغَمَ كِبَرِ سِنِّي- إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ؛
لَأَنَّ رَبِّي يَسْمَعُ دُعَاءَ مَنْ يَدْعُوهُ، وَيُجِيبُ طَلَبَ مَنْ يَسْأَلُهُ.
رَبِّ، وَفَقَّنِي لِإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ، بِالمَحَافِظَةِ عَلَى أَدَائِهَا
بِحُدُودِهَا، وَاجْعَلْ مِنْ ذُرِّيَّتِي مَنْ يَقِيمُهَا كَذَلِكَ، رَبَّنَا، وَاسْتَجِبْ
لِي دُعَائِي فِيمَا سَأَلْتُكَ فِيهِ.

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ تُحَاسِبُ عِبَادَكَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَلَا تَنْظُرْ -يَا مُحَمَّدُ- اللَّهُ سَاهِيًا عَنْ أَعْمَالِ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ
لأنفسِهِمْ، كَمُشْرِكِي قَوْمِكَ وَغَيْرِهِمْ، بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِأَعْمَالِهِمْ،
وَسَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُمَهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ، إِنَّمَا يُمَهِّلُ
اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيُؤَخِّرُ عِقَابَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَرْتَفِعُ فِيهِ
أَبْصَارُ الْخَلْقِ، وَهُمْ يُحَدِّقُونَ بِهَا مَبْهُوتِينَ خَائِفِينَ، دُونَ أَنْ
تُطْرَفَ أَجْفَانُهُمْ، أَوْ تَعْتَمِضَ أَعْيُنُهُمْ؛ لَمَّا يَرَوْنَهُ مِنْ عَظِيمِ
الْأَهْوَالِ.

يَمْشُونَ مُسْرِعِينَ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَمَجِئِهِمْ
لِمَحْشَرِهِمْ، وَحُضُورِ حِسَابِهِمْ، رَافِعِي رُؤُوسِهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، دُونَ أَنْ يَلْتَفِتُوا يَمِينًا أَوْ شِمَالًا، لَا تَعُودُ إِلَيْهِمْ
أَبْصَارُهُمْ عَلَى مَا اعْتَادُوهُ؛ وَذَلِكَ لِإِدَامَةِ نَظَرِهِمْ إِلَى مَا
يُشَاهِدُونَهُ مِنْ أَهْوَالٍ، فَأَجْفَانُهُمْ إِلَيْهَا شَاخِصَةٌ، وَأَعْيُنُهُمْ نَحْوَهَا

مُصَوَّبَةٌ لَا تَطْرِفُ لَحْظَةً، وَقُلُوبُهُمْ خَالِيَةٌ، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، وَلَا تَعْقِلُ شَيْئًا مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ.

وَحَوَافِ النَّاسِ - يَا مُحَمَّدُ- مَا هُوَ نَازِلٌ بِهِمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُوجِبَةِ لَذَلِكَ الْعَذَابِ، الَّذِي حِينَ يَأْتِي يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، وَأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي: رَبَّنَا أَمْهَلْنَا، وَأَرْجِعْنَا إِلَى الدُّنْيَا زَمَنًا قَلِيلًا، نُوْمِنُ بِكَ وَنُوحِّدُكَ، وَنَتَّبِعُ رُسْلَكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ سَأَلُوهُ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا، مُوَبِّحًا لَهُمْ: أَوْلَمْ تَكُونُوا تَحْلِفُونَ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ لَا انْتِقَالَ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، وَلَا بَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ؟

وَحَلَّلْتُمْ فِي الدُّنْيَا فِي مَسَاكِنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَعَلِمْتُمْ بِالنَّظَرِ فِي آثَارِهِمْ، وَالسَّمَاعِ لِأَخْبَارِهِمْ كَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ، حِينَ أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، وَمَتَّلْنَا لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْأَمْثَالَ الْوَاضِحَةَ، وَبَيَّنَّا الْأَشْبَاهَ؛ لَتَعْتَبِرُوا بِهَا، لَكِنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوا.

وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمُ الْعَظِيمَ، وَعِنْدَ اللَّهِ عِلْمُ مَكْرِهِمْ، وَجَزَاءُ مَكْرِهِمْ، فَسَيُعَاقِبُهُمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ، وَمَا كَانَ مَكْرُ الْكُفَّارِ بِالَّذِي تَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ؛ لَضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ، وَلَوْ كَانَ مَكْرُهُمْ تَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَنْ يَسْتَطِيعُوا أَيْضًا إِبْطَالَ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ دِينَهُ.

فَلَا تَظُنَّ اللَّهَ - يَا مُحَمَّدُ- مُخْلِفَ رُسُلِهِ مَا وَعَدَهُمْ مِنَ النُّصْرَةِ لَهُمْ وَلِأَتْبَاعِهِمْ، وَإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ، وَخِذْلَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ قَاهِرٌ لَا يُغَالَبُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ، مُنْتَقِمٌ مِنْ أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ.

إِنَّهٗ تَعَالَى ذُو انتِقَامٍ مِنَ الْكَافِرِينَ حِينَ تَتَبَدَّلُ صِفَاتُ هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَى صِفَاتٍ أُخْرَى، وَمِنْ ذَلِكَ نَسْفُ جِبَالَهَا، وَتَفْجِيرُ بَحَارِهَا، وَذَهَابُ جَمِيعِ مَا عَلَيْهَا، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِهَا شَيْءٌ، وَتَتَبَدَّلُ صِفَاتُ هَذِهِ السَّمَوَاتِ كَذَلِكَ إِلَى صِفَاتٍ أُخْرَى، وَمِنْ ذَلِكَ انْتِثَارُ كَوَاكِبِهَا، وَكُسُوفُ شَمْسِهَا، وَخُسُوفُ قَمَرِهَا، وَانْشِقَاقُهَا، وَخُرُجُ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءَ ظَاهِرِينَ - لَا يُوَارِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ بِنَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ - لِلَّهِ الْمَتَقَرِّدِ بِالْمُلْكِ وَالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالْعِظْمَةِ وَالْكَمَالِ، الَّذِي قَهَرَ كُلَّ خَلْقِهِ، فَهَمَّ تَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَحُكْمِهِ. وَتَرَى - يَا مُحَمَّدُ - الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُقَيَّدِينَ بِالْأَغْلَالِ وَالْقَيْدِ.

ثِيَابُهُمُ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا مِنَ الْقَطِرَانِ، وَتَلْفَحُ وُجُوهَ الْمُجْرِمِينَ النَّارُ، فَتُحِيطُ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَحْرِقُهَا. يَفْعَلُ اللَّهُ بِالْمُجْرِمِينَ مَا يَفْعَلُ؛ لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ جَزَاءٌ لِلْمُسِيءِ عَلَى إِسَاءَتِهِ، لَا ظُلْمًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَكَمَا يَعَاقِبُ مَنْ أَسَاءَ يُثِيبُ مَنْ أَحْسَنَ وَأَطَاعَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْمَحَاسِبَةِ لِعِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

هَذَا الْقُرْآنُ تَبْلِيغٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ؛ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ كِفَايَةٌ لَهُمْ فِي الْمَوْعِظَةِ وَالتَّنْذِيرِ، وَبِهِ يَتَبَلَّغُونَ، وَيَتَرَوَّدُونَ لِلْوُصُولِ إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ وَالذَّرَجَاتِ، وَقَدْ أَنْزَلْنَاهُ لِيُخَوِّفَ النَّاسَ بِهِ عِقَابَ اللَّهِ، وَيُحَذِّرُوا مِنْ نِقْمَتِهِ، وَلِيَعْلَمَ النَّاسُ بِحُجَّتِهِ وَبِرَاهِينِهِ أَنَّ اللَّهَ الْمَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَهٍ وَاحِدٍ، لَا يَسْتَحِقُّ غَيْرُهُ الْعِبَادَةَ، وَلِيَتَذَكَّرَ وَيَتَّعِظَ بِهِ أَصْحَابُ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، فَيَهْتَدُوا إِلَى الْعَمَلِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَتَرْكِ مَا يَضُرُّهُمْ.